



**المواطنة وبناء الدولة المدنية الدستورية
التعاقدية صناعة إسلامية
قراءة اجتماعية في صحيفة المدينة**

إعداد

أ. د. نبيل السمالوطي

العميد الأسبق لكلية الدراسات الإنسانية

والأستاذ بجامعة الأزهر

المواطنة وبناء الدولة المدنية الدستورية التعاقدية - صناعة إسلامية.

قراءة اجتماعية في صحيفة المدينة.

نبيل محمد توفيق السمالوطي

قسم الاجتماع، كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، القاهرة، جمهورية
مصر العربية.

البريد الإلكتروني: nabileelsamalouty,8@azhar.edu.eg

الملخص:

يعالج البحث قضية اجتماعية وسياسية واقتصادية وقانونية هامة فى أى مجتمع وهى قضية المواطنة بمعنى الحقوق والحريات والكرامة والواجبات أو الإلتزامات تكون متساوية للجميع دون أى تمييز على أساس الدين والجنس كل هذا يعنى سيادة القانون على الجميع بعدالة كاملة، وقد أثبت خلال البحث أن مفهوم وتطبيق المواطنة بهذا المعنى ليس إفراناً لثورات أوروبية مثل : الثورة الفرنسية أو الإنجليزية أو الأمريكية، ولم يظهر نتيجة لإعلانات منظمات دولية، مثل الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصادر عن هيئة الأمم المتحدة فى ديسمبر 1948 م، وإنما هذا المفهوم بتطبيقاته بالغة الدقة أوجده الرسول ﷺ فى أول دولة أسسها بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، ومفهوم وثقافة المواطنة، ولتاريخها الحقيقي وليس المزيف، والأبعاد المختلفة للمواطنة وأرتباطها بالأمن والسلام والوحدة الوطنية والولاء للوطن أو الدولة، وموقف المواطنة فى ظل العولمة والثورة الرقمية، ثم عرضت قراءة اجتماعية وسياسية واقتصادية بعقد الصحيفة التى أبرمها النبي ﷺ مع يهود المدينة وجعلها تنطبق على كل سكانها دون النظر إلى اختلاف الدين أو القبيلة أو العرق

المواطنة وبناء الدولة المدنية الدستورية التعاقدية - صناعة إسلامية

أو الحالة الاقتصادية والاجتماعية، وتوصل البحث لنتائج من أهمها أن المواطنة ترتبط جذرياً وجوهرياً ببناء الأمة الموحدة المتكاملة، وأوردت أخيراً النص النبوي لوثيقة المدينة، وهو الذى إختلف العلماء فى تقسيمه إلى بنود أو مواد دستورية، فالبعض قسمها إلى (46) بنداً والبعض الآخر قسمها إلى (70) بنداً، وأن دولة المدينة كانت أول دولة دستورية تعاقدية، مدينة متقدمة فى التاريخ الإنسانى كله.

الكلمات المفتاحية: مواطنة حقوق وواجبات، دولة قانونية، دولة مدنية، دولة دستورية، ثقافة التعايش السلمى.

CITIZENSHIP and building a constitutional civil state contract - an Islamic industry. Social reading in the city newspaper.

Nabil Muhammad Tawfiq Al Samalouti

Sociology Department, Faculty of Humanities, Al-Azhar University, Cairo, Arab Republic of Egypt.

Email: nabileelsamalouty,8@azhar.edu,eg

Abstract

The research deals with an important social, political, economic and legal issue in any society, which is the issue of citizenship, meaning rights, freedoms, dignity, duties or obligations are equal for all without any discrimination on the basis of religion and gender. The meaning is not a result of European revolutions such as: the French, English or American revolution, and it did not appear as a result of the declarations of international organizations, such as the Universal Declaration of Human Rights issued by the United Nations in December 1948 AD. Rather, this concept with its very precise applications was created by the Prophet, peace be upon him, in the first country he founded after immigration To Medina, the concept and culture of citizenship, its real and not fake history, the different dimensions of citizenship and its connection to security, peace, national unity, loyalty to the homeland or the state, and the position of citizenship in light of globalization and the digital revolution. It applies to all its inhabitants without regard to differences in religion, tribe, race, or economic and social status The research reached results, the most important of which is that citizenship is fundamentally and intrinsically linked to building a unified and integrated nation. Finally, it mentioned the prophetic

text of the Medina document, which scholars differed in dividing it into constitutional clauses or articles. Some divided it into (46) items and others divided it into (70) items. And that the city-state was the first constitutional contractual state, an advanced city in all of human history.

Keywords: Citizenship rights and duties ، Legal state ، Civil state ، Constitutional state ، Culture of peaceful coexistence

- ١- مقدمة حول مفهوم وثقافة المواطنة.
- ٢- تاريخ المواطنة كمفهوم وتطبيق.
- ٣- المواطنة وتأسيس بعض الثقافات
- ٤- المواطنة والعولمة والثورة الرقمية.
- ٥- المواطنة والسلام الاجتماعي.
- ٦- عطاء الإسلام في مجال المواطنة والأمن المحلي والدولي.
- ٧- المواطنة وثقافة التعايش السلمي.
- ٨- المواطنة وعقد الصحيفة: قراءة اجتماعية وسياسية واقتصادية.
- ٩- المواطنة وبناء الأمة الموحدة المتكاملة.
- ١٠- نص وثيقة المدينة.

مقدمة حول مفهوم المواطنة:

المواطنة مفهوم أو ظاهرة مركبة محورها الفرد، تسود في مجتمع حر مستقل يؤمن بالمساواة والعدالة لجميع من يعيش على أراضيه من مواطنين أو أعضاء، دون تمييز بينهم على أساس الجنس، أو الدين، أو اللون، أو العرق، أو الجهة الجغرافيا، أو خلافه. هذا يعني أن ميع من يعيش على أرض هذا الوطن أو تلك الدولة لهم نفس الحقوق والحريات والكرامة وعليهم نفس الواجب والالتزامات، وكما تشير دائرة المعارف البريطانية⁽¹⁾ فإن المواطنة تعني أن العلاقة بين الفرد والدولة يحددها القانون، والمواطنة لا تتحقق إلا في دولة مستقلة تسودها الديمقراطية أو نظام الشورى، ويتمتع ميع أبنائها بالمساواة في الحقوق والالتزامات دون تمييز.

والمواطنة مفهوم مشتق من كلمة وطن، والوطن يعنى منطقة جغرافية يعيش عليها أفراد وجماعات لها تاريخ مشترك طويل، هذا التاريخ يولد ثقافة عامة مشتركة، إلى جانب ثقافات خاصة وفرعية مختلفة تخضع جميعها لهذه الثقافة المشتركة.

والمواطن هو من يعيش على أرض هذا الوطن ويحمل جنسية الدولة التي تتألف من المكان والناس الذين يعيشون عليه، والسلطة التي تنظم هذا المكان والناس من الجوانب المختلف. والمواطن هنا يعني كل أبناء هذا المجتمع الذين يخضعون لحماية القانون والدستور في هذا المجتمع. ويرتبط بالوطن والمواطن ما نطلق عليه الولاء الوطني، ويعنى أن أعضاء هذا

(1) راجع دائرة المعارف البريطانية.

الوطن من خلال التاريخ والثقافة والآمال والآلام المشتركة، أصبح لديهم عوامل ودانية تجعلهم يشعرون بالفخر والاعتزاز والانتماء لهذا الوطن، ويعملون على استمراره وحمايته. وهذا يعنى الرضا عن كل مؤسساته التنفيذية والتشريعية والقضائية، وأنهم يحملون جنسية هذا الوطن، وخاضعين لقوانينه ودستوره، وأنهم على استعداد للتضحية بكل غال ورخيص في سبيل وطنهم.

تاريخ المواطنة كمفهوم وكتطبيق

يرى البعض أن تاريخ المواطنة هو الإغريق القديمة، لكن الحقيقة أن دولة أثينا، ودولة اسبارطة في الإغريق لم تتحقق فيها المواطنة بشكل كامل، والسبب في هذا في رأيي أن كل دولة كانت منقسمة إلى قسمين كبيرين: قسم الأحرار، وقسم العبيد. والمواطنة بمعنى كل الحقوق والحريات وسلطة اتخاذ القرارات وإدارة الدولة كانت في يد الأحرار فقط، أما العبيد فليس لهم أي حق أو حرية، لكنهم خاضعون كلياً للأحرار.

وأرى وبحق إن شاء الله أن التاريخ الحقيقي للمواطنة الشاملة الحقيقية كما نفهمه اليوم، هو ما طبقه رسول الله ﷺ في أول دولة أسسها بعد الهجرة في المدينة المنورة، فأول دستور أسس في العالم كما يذهب المنصفون من المستشرقين، هو صحيفة المدينة التي أبرمها الرسول ﷺ مع اليهود، وقد أكد الرسول الحاكم أن كل من يعيش على أرض المدينة

من يهود ومشركين ومسلمين لهم نفس الحقوق والحريات وعليهم نفس الواجبات والالتزامات (١).

الثقافات التي ترسيها المواطنة

المواطنة ترسي منظومة الثقافات والقيم، وأهمها:

- ١- ثقافة المساواة في الحقوق والواجبات.
- ٢- ثقافة سيادة القانون على جميع أعضاء المجتمع.
- ٣- ثقافة قبول الآخر، وقبول حقه في إبداء رأيه والتمتع بكل الحقوق والحريات، دون تمييز على أي أساس.
- ٤- ثقافة التحرر من كل أشكال التعصب والتمييز.
- ٥- ثقافة الأخوة الإنسانية بين جميع أعضاء المجتمع، لوحدة الأصل الإنساني.
- ٦- ثقافة الحريات للجميع دون تمييز.
- ٧- ثقافة المشاركة الفعالة أو المواطنة المسؤولة Responsible Citizenship بين جميع أعضاء المجتمع.
- ٨- ثقافة التعايش السلمي بين كل أبناء المجتمع.

(١) راجع كتاب العطاء الإسلامي للحضارة الإنسانية - منشور في رابطة الجامعات الإسلامية ٢٠١٠م.

- ٩- ثقافة قبول الاختلاف، وثقافة أدب الاختلاف، وثقافة التعاون في المشتركات الاجتماعية والثقافية، مع ترك الحرية الكاملة للتدين والعقيدة والعبادة، فهي لله وحده.
- ١٠- ثقافة الوحدة الوطنية، جميع أبناء المجتمع مطالبون بحماية المجتمع ومؤسساته والدفاع عنها وبقاء مجتمعهم.
- ١١- ثقافة محاربة الجماعات المغلقة التي تتخذ من الدين ستارا للوصول للسلطة ومكاسب خاصة، والتسلط فهذه الجماعات تناقض الوحدة الوطنية وتتناقض مفهوم المواطنة ذاته.
- ١٢- ثقافة التعددية وقبول التنوع، الذي هو سنه إلهية.
- ١٣- ثقافة الديمقراطية وقد أسسها رسول الله ﷺ في المدينة، ولكنها تختلف عن الديمقراطية الاغريقية والغربية في أنها محكومة بضوابط العقيدة والشريعة الإسلامية. وهذه هي الشورى التي تجنب المجتمع كل أشكال التطرف والانحراف والإجرام.
- ١٤- ثقافة الحوار والتسامح والعفو. وهذه قيم مشتركة لا بد من تفعيلها لاستمرار المواطنة، والعمل المشترك لصالح الوطن والدولة.
- ١٥- ثقافة الولاء المشترك للوطن على الرغم من الاختلافات العرقية، أو الدينية، أو الجمهورية، أو الاقتصادية إلخ.
- ١٦- قيمة وثقافة التربية الجيدة واحترام الشباب لأنهم القوى العاملة القادرة على بناء وتنمية واستمرار الوطن، ومواجهة التحديات. وهذا مع أهمية علم وخبرة وتوجيهات الآباء وكبار السن في

المجتمع. فالمواطنة تؤكد على كل الحقوق للأطفال وللشباب،
والمرأة، وكبار السن، وذوي الهمم على الولاء.

١٧ - ثقافة اشباع احتياجات كل من يعيش على أرض الوطن.

١٨ - ثقافة السلام والأمن الاجتماعي داخل المجتمع، وحمايته من
كل أشكال التطرف والعدوان وهذه بعض أهم الثقافات والقيم
التي ترسيها المواطنة، وهي أيضا بعض أهم أهدافها بإيجاز
شديد.

المواطنة والعولمة والثورة الرقمية - والسلام الاجتماعي

يرى البعض أن سيادة العولمة والثورة الرقمية تحدث مشكلا
في الاغتراب، والإخلال بالمواطنة والولاء للوطن والتراث المحلي.

لكن الواقع أن هذا الأمر لم يحدث. قد جاء في تقرير لجنة التنمية
الثقافية برئاسة (دي كويلار) والذي بدأ ١٩٩٣م وانتهى في ١٩٩٦م تحت
عنوان (تنوعنا البشري الخلاق Of Our Creative Diversity) (١)
وقد أكد هذا التقرير على أن التنوع البشري الخلاق هو ما يشكل الفعل
الابتكاري في الثقافة. وهو ما يؤكد على سيادة بعض مفاهيم المواطنة، مثل
مبادئ الحرية والتسامح، وحق الاختلاف، واحترام المغايرة، وقد أكد التقرير
على أنه بعد فترة من الزمن، سيعيش أغلب سكان العالم في مدن لها
خصائص مشتركة. وهذا سيتطلب تأصيل نوع جديد من الأخلاق العالمية
التي تقوم على التفاعل لا الصراع، وعلى الحوار لا المواجهة بين المكونات
المختلفة داخل الدول أو بين الدول المختلفة.

(١) تم ترجمته في المجلس الأعلى وقدم له جابر عصفور.

وقد تم مناقشة التقرير في منظمة اليونسكو برئاسة (فريديكو مايور) بالتعاون مع الحكومة السويدية نهاية مارس، وأول إبريل ١٩٩٨م، وجاء في تقرير المناقشة مجموعة من المبادئ التي ترسي أسس التنمية والتعايش السلمي، وعدم إمكان القضاء على التنوع الثقافي العالمي^(١).

ومن أهم ما جاء في هذا التقرير، أن التنمية لا تعنى مجرد الحصول على سلع، ولكنها تعني في المحل الأول تزايد الحرية في اختيار أسلوب الحياة. وجاء أيضا أن الحرية الثقافية هي في وهرا حرية جماعية فمن حق كل جماعة اختيار ما تراه من ثقافة وأساليب للفكر والحياة. وأن الحرية الثقافية هي الضمان الساسي لكل الحريات الآخرة.

وجاء أيضا أنه يوجد في عالمنا اليوم أكثر من عشرة آلاف جماعة متميزة تعيش في حوالي مائتي دولة، ولا يمكن لأي منها السيطرة على بقية الثقافات.

كل هذا يعني عدم تأثير الثورة الرقمية على ثقافة المواطنة في الدول المختلفة، واستحالة سيادة ما يطلق عليه إنسان كوني يتجاوز الثقافات المحلية وهذا يعني أن المواطنة والثقافات المحلية سوف تستمر، وأن ما يقال عليه من صراع بين الهوية الوطنية، والهوية العالمية أو العلمية، لن يحدث حالة من الاغتراب أو (الأنومي) بين الشباب، إذا استمرت عمليات التنشئة الاجتماعية في مختلف مؤسساتها بالعمل على الحفاظ على الوطنية وقيم المواطنة والثقافة المحلية، بشكل جيد. وإذا حدث صراع بين الهوية المحلية والعالمية، فسوف تكون في أضيق نطاق، وإنما يمكن

(١) راجع تقرير منظمة اليونسكو ١٩٩٨م وهو منكور في دراستي بعنوان العطاء الإسلامي للحضارة الإنسانية ص١٧٤-١٧٣ وما بعدها.

إرساء مبدأ التعايش السلمي والتعاون والمشاركة بين كل المصالح والمشتركات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الدول، ولا شك أن هذا سوف يدعم منظومة القيم المشتركة والواسم الثقافية المشتركة سواء داخل المجتمع الواحد، أو بين المجتمعات المختلفة وهذا نتيجة لسيادة ثقافة الحوار والتعايش والسلام الاجتماعي والمصالح المشتركة... بدلا من الصراع والمواجهة^(١) وتهميش الثقافات المحلية. ذلك لأن وجود هذا التنوع الثقافي مع الثورات العلمية والرقمية والاتصالية سوف يزيد من التفاعل الإيجابي بين المجتمعات. وهذا يعنى استحالة تحويل كل الثقافات إلى ثقافة إنسان كوني، أو إلى الإخلال بقيمة وثقافة المواطنة.

السلام قيمة أساسية للمواطنة في الإسلام

أهدي الإسلام للناس السلام والأمن والأمان فصناعة السلام والأمن صناعة إسلامية والمسلم كما عرفه رسولنا عليه الصلاة والسلام هو من س المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن هو من آمنه الناس على ودمائهم وأموالهم. والله هو السلام، وهو يدعوا إلى دار السلام (الجنة ودعاء ختم الصلاة خمس مرات في اليوم كما يعلمنا رسولنا عليم لصه والسلام هو (الهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام وديننا الإسلام يحضنا علي السلم: يقول تعالي (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ ءِِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) (البقرة: ٢٠٨) وحتى في حالة الحرب فإن الله يدعونا إلى قبول السلم إذا جنح إليها الطرف الآخر: يقول الله تعالي (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (الأنفال: ٦١) وقد نها الله عن العدوان سواء داخل المجتمع

(١) راجع ترجمة الملس الأعلى لتقرير (تنوعنا الخلاق) مصدر سابق.

الواحد أو بين المجتمعات، فإن الله لا يجب المعتدين. وقد حرصت الشريعة على حماية الدين والعرض أو الكرامة الإنسانية، وحماية المال والعقل وحماية النفس. وهذه ما تسمى بالكليات الخمسة أو المصالح الخمسة التي تحرص الشريعة على حمايتها لكل من يعيش داخل أمة الإسلام سواء من المسلمين أو غير المسلمين، فالسلام هدف وحق لكل من يعيش داخل هذه الأمة مسلماً كان أم غير مسلم طالما أنه التزم بمنهج الأمة ودستورها، وطالما أنه مسالم غير معادي على أحد فالأمة الإسلامية لها جانبان

أ- الأمة العقائدية وتضم المسلمين فقط داخل الأمة وتحترم حق الآخرين في التدين.

ب- الأمة الحضارية يشارك في عضويتها كل من يعيشون مسالمين آمنين.

داخل الأمة من غير المسلمين من أهل الكتاب. وقد أعطانا الرسول عليه الصلاة والسلام الدرس الأول والأهم بصحفية المدينة والتي أسس بها أول دولة إسلامية. وكان من أبرز بنودها لهم ما لنا وعليهم ما علينا^(١) فالسلام والسلم والأمن صناعة إسلامية وفرض في ديننا بالشروط التي حددتها الشريعة الإسلامية التي تتسم بالوسطية والعدل وحماية الناس

بالحق والعدل وقد كان أول توجيه للرسول عليه الصلاة والسلام عند تأسيس أول دولة إسلامية دستورية في التاريخ، قوله عليه الصلاة والسلام كما يروي عبد الله بن سلام: قال (لما قدم النبي ﷺ لمدين جنّت،

(١) راجع صفى الدين المباركفوري: الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام- دار التدمرية- السعودية ٢٠٠٠ ص ١٩٢.

المواطنة وبناء الدولة المدنية الدستورية التعاقدية - صناعة إسلامية

فلما تبينت وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب فكان أول ما قال: يأيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام^(١) وكان يقول: (لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه^(٢)) ويقول: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده^(٣)) ويقول: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه^(٤))

عطاء الإسلام في إرساء مفهوم المواطنة تنظير وتطبيقاً

وتأريخ الميلاد الحقيقي لمفهوم المواطنة بأبعادها المختلفة هو أولاً: نصوص القرآن الكريم والسنة المظهرة ، وثانياً ما فعله الرسول قا عند تأسيس الدولة الإسلامية بعد الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة ويمكن تحديد إبرز أبعاد المواطنة فيما يلي :

- بعد الكرامة الإنسانية ، فهي مكفوله بنص القرآن الكريم لكل الناس قال تعالي (ولقد كرمتنا بني آدم) (الإسراء: ٧٠) ولم يقل لقد كرمتنا المسلمين

البعد القانوني للمواطنة بمعني المساواه الكاملة في الحقوق والواجبات أمام القانون ونظم المجتمع . وهذا يتتمل في ما فعله الرسول عند تأسيس الدولة والمجتمع الإسلامي الأول ، سواء في معاهدته مع يهود المدينة (لهم ما

(١) رواه الترمذي، وابن ماجه، والدارمي مشكاة المصابيح ١/١٦٨.

(٢) رواه مسلم، مشكاة المصابيح ٢/٤٢٢.

(٣) صحيح البخاري ١/٦٠ ولمزيد من المعلومات راجع: المباركفوري: مصدر سابق ص ١٨٨.

(٤) صحيح البخاري ١/٦٠ ولمزيد من المعلومات راجع: المباركفوري: مصدر سابق ص ١٨٨.

لنا وعليهم ما علينا^(١) وبقية البنود المعاهدة كما ذكرها ابن هشام ، أو في المآخاه بين المهاجرين والأنصار ، أو ميثاق التحالف الإسلامي الذي عقده الرسول بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد

أمة من دون الناس هذا الميثاق يختلف عن المعاهدة اليهود ويختلف عن المآخاه بين المهاجرين والأنصار ، وقد كانت بنودها (١٤) بندا وقد استهدف هذا الميثاق القضاء علي كل ألوان

الحزازات والعصبيات الجاهلية والنزاعات القبلية واستهدفت لى- علي المساواة الكاملة بين كل المسلمين في الحقوق والواجبات ، ليس هذا فحسب ، وانما نص الميثاق علي المساواة الكاملة بين المسلمين ومن لحق بهم من يهود فإن لهم النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم . وقد قدم الرسول و هذا الميثاق بعبارة (هذا كتاب من محمد النبي قل إلى المؤمنين والمسلمين من قريش لا ويثرب ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم) وجاء من ضمن بنود الميثاق أن نمة الله واحدة يجير عليهم أديانهم ، وأن سلم المؤمنين واحد ، وان أي اختلاف يكون مرده إلى الله عز وجل والى محمد ﷺ.^(٢)

- البعد الاجتماعي للمواطنة بمعني المشاركة في عضوية المجتمع وفي كل أنشطة المجتمع المدني والقبول بالتعايش السلمي والمشارك رغم تعدد الأصول الدينية أو القبلية أو الاقتصادية . وهذا البعد يتضح من ميثاق

(١) المصدر السابق ص ١٩٢ وانظر ابن هشام ٥٠٣-٥٠٤.

(٢) راجع نصوص الميثاق في سيرة ابن هشام ٥٠٢-٥٠٣، وفي دراسة المباركفوري

-مصدر سابق ص ١٨٦-١٨٨.

المواطنة وبناء الدولة المدنية الدستورية التعاقدية - صناعة إسلامية

التحالف الإسلامي ، ومن معاهدة الرسول مع يهود المدينة ، كما يتضح من حق الشوري لكل ابناء المجتمع المسلم وحرية بدء الرأي والنقد البناء الذي يأخذ شكل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

- البعد الأمني للمواطنة : وتعني حماية الدولة لجميع مواطنيها والإسلام يؤمن كل من يعيشون داخل المجتمع المسلم على أنفسهم وأسرهم وأعراضهم وأموالهم ومساكنهم وعباداتهم و أنهم ارتضوا بدستور الدولة والذي بدأه الرسول ﷺ. بالمأخاه ، وميثاق التحالف الإسلامي، والمعاهدة مع يهود.

- البعد الثقافي للمواطنة ويعني انعدام التمييز بين الناس علي أساس الجنس أو العرق أو الدين أو الطبقة أو الطائفة أو القبيلة وقد سبق أن ذكرنا أن الإسلام قضي علي كل عصبية الجاهلية وكل الحزازات القبلية وسأوي بين أبناء المجتمع الإسلامي مسلمين أو غير مسلمين في الحقوق والواجبات ، فلا تمييز علي اساس الجنس أو العرق أو الدين وقد برز هذا واضحا في نصوص ميثاق التحالف الإسلامي ، ونصوصه مع يهود المدينة التي سبق ذكرها^(١) وهذا يتضح من نصوص القران الكريم و الصحيح من السنة ، فلا فرق بين عربي وأعجمي الا بالتقوي وقال تعالي (يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات ١٣) فالمعيار الوحيد للمفاضلة هو التقوي، ومن مضامينها العمل للصالح العام أو النفع الناس ، فخير الناس أنفعهم للناس وهناك العديد من الأحاديث التي تدور حول هذا المعني - البعد النفسي للمواطنة : ويقصد به الشعور بالأمن

(١) المباركفوري: مصدر سابق ص ١٩٢.

والأشباع والحرية والولاء والانتماء للوطن . وهذا قد حققه الرسول وحققه الخلفاء الراشدين من بعده ، لكل من يعيش في كنف المجتمع بغض النظر عن إختلافاتهم الدينية واللونية وللسانية والعرقية إلخ ، فعهد الرسول مع نصاري نجران ، ومع يهود المدينة ، وحتى م مشركي المدينة الذين قال فيهم الرسول (سنوابهم سنة أهل الكتاب غير أنه لا تؤكل ذبائحهم ولا تتكح نساؤهم) . وقد استهدف من كل هذه المعاهدات توفير الأمن والسلام والسعادة لكل من يعيش في المجتمع المسلم دون تمييز هكذا نستطيع الجزم أن الحضارة الإسلامية أهدت البشرية مفهوم المواطنة بأبعادها المختلفة، وهي مالم تتوصل إليه البشرية إلا بعد الثورات الأوربية - الفرنسية والإنجليزية ، وبعد سلسله متواصله من الحروب و الصراعات الدامية ، ولم تطبق في دول الغرب إلا بعد عصر النهضة وبعد ظهور الدساتير الحديثة . ومما يجدر التنويه إليه ، أن ميثاق التحالف الإسلامي الذي عقده الرسول ، جنباً إلى جنب مع اليهود ، هي تاريخ الميلاد الحقيقي لمفهوم الدستور أو العقد الاجتماعي الذي يؤسس المجتمع والدولة المدنية على أساس مفهوم المواطنة بأبعادها التي ذكرناها.

المواطنة وإرساء الإسلام لثقافة التعايش السلمي

أهدى الإسلام للإنسانية كلها أسسا للتعايش السلمي بين الناس وبين الشعوب والمجتمعات . وبما أن التنوع البشري سنة إلهية وإرادة الله في خلقه لقوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} (١١٨) سورة هود...)

وبما أن إرادة الله شاءت أن يكون الناس مختلفين منهم الكافر ومنهم المؤمن لقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (٢) سورة التغابن

وبما أن الجميع وسعتهم أرض الله - الكافر والمؤمن والذين يدينون بديانات كثيرة ، الأبيض والأسود ، الذين يتحدثون لغات متباينة، الذين يدينون بثقافات متنوعة إلخ ، فلا بد من منهج للتعايش معا بطريقة سلمية تحفظ لكل نفس الحقوق والواجبات دون صراع أو صدام أو عدوان . فالسلام في الإسلام هو الأصل في العلاقات بين كل الناس ، والحرب ليست أصلا من أصول الإسلام وإنما يتم اللجوء إليها دفاعا عن الوطن أو الدولة ودفاعا عن الدعوة ولنصرة المظلومين . إرساء الاستلام الثقافية التعايش السلمية ولقد عامل الرسول لا كل الناس مسلمين ومخالفين باحترام لحقوقهم وحررياتهم ، والنماذج كثيرة جدا فقد أجلس حوالي (٦٠) من نصارى نجران في مسجده الشريف بالمدينة المنورة ، ولما حان موعد صلاتهم قاموا متوجهين للشرق ليصلوا، فهب المسلمون لمنعهم ، لكن الرسول ﷺ نهاهم عن ذلك وترك الوفد المسيحي يصلى صلاتهم المسيحية باطمئنان في مسجده عليه السلام . وكان الرسول يزور جيرانه . فعن أنس أن غلاما ليهود كان يخدم النبي * فمرض فزاره الرسول وقال له (أسلم فأسلم) (١)

الإسلام يبحث عن القواسم المشتركة مع غير المسلمين والتي تمكن الجميع من العيش معا في سلام وأمن وأمان حتى مع الكافرين غير المعتدين ، وتأكيدا على هذا فقد أكد الرسول : عن حلف الفضول الذي

(١) راجع صحيح البخاري ٤/٤، وانظر فاتح الباري ١٠/١١٩.

أسس في الجاهلية وكانت أهدافه سامية تتصل بنصرة الحق والمظلوم وتحقق العدل ، قال عنه النبي ﷺ (لو دعيت لمثله أجبته) . وقد أرسى الرسول ﷺ و مبادئ أول دولة وهي بداية ظهور الأمة الإسلامية في المدينة المنورة بعقد الصحيفة الذي أبرمه مع يهود المدينة يعطى اليهود كل حقوق المسلمين في الأمن والسلام والحرية والدفاع المشترك . ومن بين بنوده المهمة (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) . وجاء فيه كفالة حرية الدين والأمن والدفاع المشترك ^(١) ضد أي معتدي على المسلمين أو على اليهود . وهذا يعني أن الدولة الإسلامية تتسع للجميع مسلمين وغير مسلمين بشرط الالتزام بالضوابط الشرعية والعقلية وفي مقدمتها السلم وعدم الاعتداء ، وعدم خرق بنود العقد الإجتماعي (الدستور) الذي ينظم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين . فقد جاء في بنود المعاهدة التي تمثل أول صياغة لعقد اجتماعي حقيقي (دستوري) في تاريخ الإنسانية ، جاء فيها أن (يهود بني عوف أمه مع المؤمنين لليهود دينهم ومواليهم وأنفسهم ، كذلك لغير بني عوف من اليهود) وجاء فيها أن (بينهم أي بين المسلمين واليهود) النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ^(٢) وقبل الرسول لا صلح الحديبية مع أنه جائر بالنسبة للمسلمين ، وما ذاك إلا بهدف الصلح وتجنب القتال وإراقة الدماء ، ولم يضطر الرسول لدخول مكة فاتحا إلا بعد أن خالف المشركين بنود اتفاقية الصلح ^(٣) . وقد كان الرسول طالبا للأمن والسلام والرحمة لكل

(٢) راجع صفى الدين المباركفوري: الرحيق المختوم في بحث السيرة النبوية - دار التدمرية - السعودية ٢٠٠٠ ص ١٩٢-١٩٣ .

(٣) المصدر السابق ص ١٩٢ .

(٤) راجع سيرة ابن هشام ٣/٣١٧ ط مكتبة الحلي ١٩٥٥م .

الناس. وهذا هو أسمى معاني التعايش السلمي ، فبعد بناء الدولة أبرم صلحا ومعاهدات مع إمارات وقبائل مجاورة منها إمارات على حدود الشام كأهل إيلات ، وأهل أنرح ، وصالح الأكيذر صاحب دومة الجندل وغيرهم^(١) (وقد عرض الرسول ﷺ على جميع ملوك الأرض في عهده الشريف ، عرض عليهم الإسلام أولا، والتعايش السلمي حتى مع اختلاف الأديان ، وقد استجاب بعض الملوك لهذه الرسائل بالإسلام مثل نجاشي الحبشة وملوك حمير وعمان ، واستجاب بعضهم بالمهادنة والمسالمة مثل مقوقس مصر ، وعاند بعضهم وكابر مثل ملوك الغساسنة وكسرى والتعايش السلمي الآمن بين كل الناس بغض النظر عن الاختلافات الدينية أو العرقية أو الطبقية أو الإقتصادية... يرتكز على مجموعة من الأسس التي تعد أول سابقه دبلوماسية دولية في التاريخ لم يصل إلى مستواها القانون الدولي والاتفاقات الدولية المعاصرة وأبرزها

أ - احترام كرامة الإنسان وحقوقه بغض النظر عن دينه ولونه وطبقته وجنسيته وجنسه .

ب- العدل مع الجميع دون نظر الى الاختلافات السابقة. وقد سبق لنا الحديث عن العدل في المفهوم الإسلامي وسوف نوفية المزيد من التفصيل في الفصول القادمة

(١) إبراهيم حركات السياسة والمجتمع في العهد النبوي- دار الاتفاق الجديدة- المغرب ١٩٨٩م ص ٣٢٠، وانظر أيضا الرحيق المختوم السابق ذكره.

ج- السلم والأمن: وتعريف المسلم أنه من سلم الناس من لسانه ويده ، والمؤمن هو من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم . فالسلام حق للجميع إلا المعتدين المتآمرين .

د- الوفاء بالعهود والعقود والمواثيق في حالة السلم وفي حالة الحرب . قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ . } (١) سورة المائدة . وقد حافظ النبي على عقده مع يهود المدينة حتى خالف اليهود شروط العقد، لا وحافظ على عقد صلح الحديبية حتى خالف مشركى مكة شروط هذا العقد . وحتى في حالة الحرب بطالنا القران الكريم بالحفاظ على العقود والمعاهدات والمواثيق . فقد وضع الإسلام مبدأ عدم محاربة إلا المعتدين ، وإلا المحاربين اما غير المحاربين من غير المسلمين من النسد نور والأطفال وكبار - السن والعباد المتفرغين للعبادة فلا عدوان عليهم، وألوجب تامينهم وعدم مقاتلتهم . وحتى المحاربون يقول تعالى { وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ } (٥٨) سورة الأنفال . فلا بد من وجود ضوابط للحياة . حياة الإنسان مع نفسه ومع غيره من النار المتبعين لدينه والمخالفين له ، وضوابط في التعامل مع الأعداء . والإسلام عندما يحدد هذه الضوابط يربطها بالله سبحانه وتعالى ويكفل لها الإحترام الواجب حتى لا يكون الأمر فيها متروكا للأهواء أو الشهوات أو المصالح المتعارضة (١)

ه- توفير العيش الكريم لكل إنسان ولهذا جعل الله للفقراء والمساكين وبقية الفئات الثمانية المستحقة للزكاة حق في مال الأغنياء ، ودم كل ما من شأنه إفقار وإذلال والاستهانة بأقدار الناس وبحرياتهم وقوتهم . هذا حرم

(١) سيد قطب في ظلال القرآن، دار الشروق ١٩٩٢م ج ٢ ص ٨٣٥.

الربا والغش و الميسر والإحتكار كما سبق أن أوضحنا ^(٢) و التعاون والإستفادة مع المعرفة والعلم والتبادل الإقتصادي مع كل الناس مسلمين وغير مسلمين، بما يحقق مصلحة الجميع وبما يتفق مع مكارم الأخلاق والقيم الإسلامية العليا . فنحن مأمورون بحماية الحيوانات (في كل كبد رطبة أجر) فما بالنا بالناس من بني آدم . هذه الفكر الإسلامية الربانية لا يطبقها أغنياء اليوم من دول وشركات وتكتلات ، فهي تتعامل بالربا وتمارس الإحتكار وحجب المعارف النافعة ، ويمتد الإحتكار ليشمل قوت الناس وغذائهم، ويشمل حتى الأدوية ، لا يهتم من يتصور جوعا ، أو من يموت ولا يجد الدواء للشفاء بإذن الله ز - أرسى الله في الكون سننا ثانية لا تتخلف ، من أخذ بها أو بعضها نجح في الجانب الذي يحققه، بغض النظر عن الدين والجنس والمتغيرات البشرية الأخرى . كذلك فقد بني الإسلام قاعدة جوهرية تنطبق على كل الناس وهي سلامة وتفوق وتقدم كل من يؤمن بالله ويطبق منهجه في الحياة بكل مجالاتها. هؤلاء ينجحون في المجالات الحياتية المختلفة إقتصاد - سياسة - علم - تكنولوجيا .. قال تعالى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون (٩٦) سورة الأعراف . وقال تعالى (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) { (١١٢) سورة النحل

(٢) راجع عبد الله المصلح ص ١٦٠ .

عطاء المسلمين في مجال العدل مع غير المسلمين :

يحرم الإسلام تحريماً قاطعاً كل أشكال الظلم وكل أشكال الفساد والإفساد سواء مورس هذا مسلمين أو غير مسلمين . فالظلم ظلمات القيامة ويكفي أن الله سبحانه وتعالى قال في حديث قدسي (إني قد حرمت على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) . ولنا أن نقارن بين هذا المرتكز المهم من مرتكزات التعايش في الفكر الإسلامي، بما يمارسه المفسدون في الأرض من تجارة أسلحة وإثارة الفتن والحروب الإستخدامها ومن ممارسات للإستبداد وظلم الشعوب وتجويعها ونهب منظم لثروات الشعوب ومحاولة فرض نظم غير أخلاقية تحطم الأخلاق وتقضى على مؤسسة الأسرة وعلى العفة والطهارة، وتتصادم مع الفطرة النقية ومع العقل السليم، ومع ضوابط الدين .

ولنا أن ننظر ما يحدث في العراق وفي أفغانستان ومع إخواننا ف فلسطين بشكل عام وفي غزة بشكل خاص الخ.

عرضت كل أبعاد مفهوم وثقافة المواطنة، كما عرضت فكرة السلام الوطني والسلام الأقاليمي والدولي، ويتضح من ثقافة المواطنة فكرياً وفلسفة وتطبيقاً إنها أمر يحقق كل الجوانب الأمنية والإيمان بالدولة الوطنية والولاء لها والاستعداد للدفاع عن هذه الدولة الوطنية ومؤسساتها المختلفة، خاصة المؤسسات الأمنية التي تمثل العمود الفقري للدولة الوطنية، والمسئولة عن حمايتها واستقرارها وتنميتها. هذا الاستقرار والتنمية ينعكس إيجابياً على كل أبناء الدولة نتيجة لسيادة فلسفة المواطنة كما سبق ذكرها.

وهذا يعني أن فلسفة المواطنة تحقق درجة عالية من الاستقرار والأمن والسلام للدولة الوطنية، ليس هذا فقط فالإيمان بفلسفة المواطنة والدولة القومية، يحقق درجة عالية من الاستقرار والسلام والأمن الدولي، لأنه من بين أبعاد فلسفة المواطنة الإيمان بالحوار وحق الآخر في كل الحقوق والحريات.

والإيمان بالتسامح والمشاركة في كل أشكال التعاون مع الآخرين أفراد أو جماعات ودول لتحقيق المصالح المشتركة والمشاركات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية .

هذا التعاون لا علاقة له بالدين ويتحقق في ظل اختلاف الأديان والنظم السياسية والاقتصادية، يتحقق في ظل عدم التدخل في سياسات الدول الأخرى . وهذا ما يحقق السلام العالمي وإذا نظرنا في قوله تعالى: (يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) .

هنا يؤكد ربنا سبحانه وتعالى على التعاون بين الشعوب أي بين الدول المختلفة، وبين القبائل وهي الجماعات والطوائف المختلفة داخل الدولة.

لا علاقة لهذا التعاون بالدين والاختلاف العقدي، لأن الله وحده هو الذي يحاسب على الدين (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَأَكُمُ) وليس عند أي فرد أو جماعة أو أصحاب دين معين . الإسلام يدعونا إلى التعاون الداخلي داخل الدولة الوطنية بين كل فئاتها، والتعاون الدولي بين كل مجتمعات العالم، الشرط هو تطبيق فلسفة وقواعد ومبادئ المواطنة- الحوار والتسامح والمشاركة وضبط الحقوق والحريات للجميع، وعدم الاعتداء أو التطرف.

المواطنة وعقد الصحيفة: الدستور الأول في التاريخ

إذا رجعنا إلى تأسيس رسولنا ﷺ لأول مجتمع إسلامي في التاريخ وأول دولة متحضرة أدت إلى تحضر العالم كله في القرون الوسطى في أفريقيا وآسيا وأوروبا (الأندلس) نجد أنه ﷺ أسس هذه الدولة على مجموعة من المبادئ التي لم تصل إليها دول العالم إلا حديثاً، ولم يتم تطبيقها بكفاءة وعدالة كما طبقها رسولنا الكريم.

أهم هذه المبادئ في عجالة هي ما انتهت إليه أعمال ندوة صحيفة المدينة وفن بناء الدولة والتي شاركت فيها بدراسة في يونيو ٢٠١٤م في مدينة قسنطينة بالجزائر^(١) ويتضح منها أنها دولة حققت أعلى درجات التنمية السياسية:

أولاً: دولة تعاقدية: فقد عقد الرسول ﷺ مع أهل المدينة في منى عقداً بعد عدة لقاءات سابقة في بيعة العقبة الأخيرة، مشاركاً فيها ٧٣ رجلاً

(١) راجع منشورات كلية الآداب والحضارة الإسلامية (١١) جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية: قسنطينة الجزائر - إعداد إسماعيل سامي ود. عبد الله بوخلخال: بحثي من ص ٦٥-٦٨.

المواطنة وبناء الدولة المدنية الدستورية التعاقدية - صناعة إسلامية

وامرأتين من أهل المدينة- وقد طلب الرسول ﷺ منهم اختيار (١٢) نقيباً لإجراء العقد ثم عرض العقد على الخمس وسبعين ممثلاً لأهل المدينة (يثرب) قبل الإسلام، وتمت الموافقة بالإجماع، هذا يعني أن أول مدينة إسلامية في التاريخ أسست على عقد اجتماعي صحيح ويختلف هذا عن العقد الاجتماعي الوهمي الذي لم يتحقق لمفكر الفرنسي (جان جاك روسو) والإنجليزي (جون لوك) اللذان يعدان الأساس الفلسفي للبرالية الأوروبية حتى اليوم.

ثانياً: استقبل أهل المدينة رسولنا ﷺ بالترحاب والأغاني المعروفة. وتسابقوا على حلول ناقته (القصواء) في دورهم هذا يؤكد أن أهل المدينة هم الذين اختاروا الرسول ﷺ رئيساً سياسياً إلى جانب كونه مرسلًا من عند الله نبياً ورسولاً. (١).

ولا شك أن رضاء أهل المدينة عن الرسول ﷺ رئيساً، إنما يعني اليقين أنه سوف يمنحهم جميعاً حقوق وحريات وواجبات متماثلة، وأنه يسوى بين جميع أبناء المجتمع وهذا هو مفهوم المواطنة.

ثالثاً: أول ما دعا إليه الرسول ﷺ في المدينة إنشاء السلام، وإطعام الطعام، وصله الأرحام، والصلاة بالليل، وهذا ما أكده ابن سلام الذي كان حبراً يهودياً ثم أسلم، وهذا أمر منطقي لم يكن مطبقاً لا في جزيرة العرب ولا في غيرها من مجتمعات. فلا دعوته إلى الله بدون سلام، ولا وجود لمجتمع آمن إلا في سلام، ولا تقدم وتنمية وعمل واجتهاد دون سلام.

(١) راجع المباركفوري: الرحيق المختوم: رابطة العالم الإسلامي مكة ٢٠٥ ص ١٩٣- ص ٢١٥، وراجع كتاب (هارولد لاسكي): التحررية الأوروبية.

رابعاً: تحقيق التوافق الوطني أو الوحدة الوطنية. فلا مجتمع ولا آمن ولا استقرار في ظل الصراعات الداخلية أو الحروب الأهلية. ولا حقوق وحريات ومساواة (مواطنة) دون سيادة الوحدة الوطنية والأمن الاجتماعي. فقد آخى الرسول ﷺ بين الأنصار والأنصار والمهاجرين والأنصار، بل وآخى بين اليهود والمسلمين إلخ.

خامساً: لا وجود لمجتمع آمن يحقق المساواة والمواطنة دون وجود مؤسسات يشارك فيها قادة المجتمع، ولا وجود لمجتمع آمن يحقق المساواة والمواطنة لكل أبنائه دون سيادة قانون. هذا ما فعله الرسول ﷺ لأول مرة في التاريخ، فقد أسس مسجد قباء ليكون مكانا ليس فقط للصلاة، ولكن لإدارة كل شؤون الدولة اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وعسكريا وإبرام المعاهدات والاعداد للحروب الدفاعية.

هذا يعني أن الرسول ﷺ أرسى قواعد للبناء الهيكلي، وأسس ما نطلق عليه اليوم دولة حديثة تتألف من مكان وشعب وسلطة يرضى عنها الشعب^(١).

سادساً: عمل دستور وهو ما يسمى وثيقة المدينة، وهو أول وثيقة دستورية في التاريخ الإنساني صحيح أنه تم مع اليهود لكن بنوده تنطبق على جميع

(١) راجع صالح أحمد العلي: تنظيمات الرسول ﷺ الإدارية في المدينة: مجلة المجمع العلمي العراقي - عدد ١٧ بغداد ١٩٦٩م، وراجع أيضا: مونت جومري وات: الفكر السياسي الإسلامي: ترجمة صبحي الحديدي: بيروت دار الحدائث للطباعة والنشر ١٩٨١م وراجع أيضا جاسم الحباوي: الوثيقة النبوية والأحكام الشرعية المستفادة منها - مكتبة الصحابة الشارقة ٢٠٠٦م.

أبناء المدينة مسلمين ويهود ومشركين^(١) وقد أكدت هذه الوثيقة الدستورية الأولى في العالم، حرية العقيدة، حرية الرأي، وحرمة المدينة أو الدولة، وحرمة الحياة، والنفس، والمال، وللجميع. وحرمة الجريمة، وأكدت حق الجميع يهود ومسلمين وغيرهم في المشاركة في أمور الدولة والدفاع المشترك عنها، وواجب الجميع في حماية أي طائفة أو فئة داخل الدولة يتم الاعتداء عليها من الخارج كما أكدت على جريمة الاعتداء على أي من أبناء الدولة، أو التآمر مع الأعداء ضد أية طائفة من الدولة.

وقد حاول بعض الدراسين تقسيم وثيقة دستور المدينة محاور وبنود مثل الدساتير الحديثة تيسيرا للدراسة. فالمستشرق الروماني (جيورجيو) يرى أنه يحتوي على ٥٢ بندا كلها من رأي الرسول ﷺ خمس وعشرون منها يتصل بأمور المسلمين، وسبعة وعشرون بند يرتبط بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى، لاسيما اليهود وعبدة الأوثان.^(٢)

وقد أشاد (مونتجومري وات) أن الوثيقة تقع في ٤٦ بندا^٣ وهناك تقديرات أخرى كثيرة منها من يرى أنها تقع في أكثر من ٧٠ بندا، ولا شك أن هذا الاختلاف يعنى اهتمام علماء الغرب والمسلمين بهذه الوثيقة المهمة التي تعد أول الصيغ الدستورية في العالم قبل أن يطلق عليه (الماجناكارتا) أو

(١) راجع بحثي الذي ألقيته في الجزائر - جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ٢٠١٤/ بعنوان: الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لصحيفة المدينة ص ٦٥-٦٩.

(٢) جيورجيو كونستانس: نظرة جديدة في سيرة الرسول ﷺ ، ترجمة محمد التونسي بيروت: الدار العربية للموسوعات ١٩٨٣م ص ١٩٢ وما بعدها.

(٣) مونتجومري وات: الفكر السياسي الإسلامي - ترجمة حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ط ٥ بيروت دار النفائس ١٩٨٥م ص ٩٥-٦٠.

العهد الأعظم في إنجلترا والتي يعده بعض الباحثين أول دستور في العالم، وذلك بأكثر من ستة قرون على الأقل وهذه الوثيقة الدستورية أو الصحيفة المدنية أكدت على منظومة من القيم والنظم التي تشكل الدولة المستقرة المتكاملة. من هذه المنظومة ولاء كل أبناء المجتمع للدولة وليس للقبيلة أو العائلة أو العشيرة هذا إلى جانب شيوع كل الحقوق والحريات لكل أبناء المجتمع دون تمييز، بما في ذلك حرية العقيدة والعبادة، وذلك قبل الثورة الفرنسية التي رفعت شعار الحريات، وقبل ميثاق حقوق الإنسان الصادر عن هيئة الأمم المتحدة ١٩٤٨م بأربعة عشر قرن، وقد جاء مصطلح القسط أو العدل في الوثيقة تسع مرات^(١) ويطبق العدل في كل القضايا الشخصية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو غيرها.

من العدل حسن توزيع الثروات للجميع دون تمييز، وإتاحة التعليم والعمل والرعاية الصحية، والسكن المناسب، وحق التنقل والعلاج والدفاع عن النفس والعرض والمال والدين للجميع، كذلك إتاحة نظام قضائي عادل وتحريم كل أشكال الظلم للجميع دون تمييز والوثيقة تؤكد الحق في الشورى والتعبير عن الرأي والوثيقة تحدد بشكل واضح المرجعية عند الاختلاف فهناك أجهزة تنفيذية وتشريعية وقضائية، تنبثق جميعها من القرآن والسنة حيث جاء النص كآلآتي: (وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد ﷺ)، فالرسول أو من يختارهم لهم حق تطبيق النصوص الشرعية، والفصل في الخلافات. جاء في نصوص صحفية (وإنه ما كان بين أهل هذه

(١) ابن هشام السيرة النبوية: تحقيق مصطفى السقا، والإبياري، وعبد الحفيظ شلبي: بيروت: دار إحياء التراث (د.ت) ٢/١٤٨.

المواطنة وبناء الدولة المدنية الدستورية التعاقدية - صناعة إسلامية

الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساد، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله) وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره^(١).

كل هذا يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن هذه الوثيقة تقدم من أعظم ما انجزه رسول الله بعد الهجرة وبناء الدولة الجديدة، وتعد نموذجاً ليس له مثيل حتى اليوم في بناء مجتمع أو دولة تحكمها القوانين والمواطنة والعدالة وكل القيم الإنسانية وقيم الكتب السماوية العليا. هذا النموذج يخضع لثوابت شرعية التي تحول دون الظلم والتمييز وحتى عصر التنوير لأن كل مبادئ المواطنة التي ذكرناها تعني أن أبناء المجتمع من كل الأديان والثقافات لهم نفس الحقوق والحريات والكرامة وحق المشاركة والواجبات، وأنهم مصدر اختيار الحاكم ورقابته ومحاسبته، والعدالة والمساواة والسيادة على مؤسسات الدولة، كل ذلك في إطار الثوابت الشرعية التي تحقق الأمن والعدالة للجميع وتمنع كل أشكال الظلم والفساد والانحراف.

المواطنة وبناء الأمة:

ومن جوانب الإعجاز في وثيقة المدينة أنها جعلت الأمة الإسلامية تتكون من كل أبناء المجتمع أو الدولة وهم متعددو الديانات والثقافات والطبقات، والألوان والألسن والقبائل... هذا يعني قبول التعددية والاختلاف لأنه سنة إلهية في إطار سيادة القانون والالتزام ببنود الوثيقة وعدم الاعتداء أو التآمر مع معتدين. ويؤكد الشيخ ابن بيه أن صحيفة المدينة جاءت

(١) راجع سيرة ابن هشام. وراجع حسن حنفي: علوم السيرة من الرسول إلى الرسالة: مكتبة مدبولي - القاهرة ٢٠١٣م.

لمجتمع متعدد الديانات والثقافات والطوائف ونظمت العلاقة بينهم^(١) ودعا بن بيه إلى تبني بنود الوثيقة بدلا من القول بنسخها خاصة في مجتمعات متعددة الديانات ويرى أنه يمكن تطبيق هذه الوثيقة بالإضافة إلى موثيق الأمم المتحدة وهو يرى أن مسألة الولاء والبراء وغيرها تحتاج للمزيد من الدراسة لمعرفة أي ولاء؟ وأي براء؟ وهل هي قضية تتصل بالعبودية والدين أم قضية اجتماعية دنيوية كل هذا يؤكد أن هذه الوثيقة هي أول إعلان دستوري في العالم، يوضح نظام الدولة وعلاقة أعضائها ببعضهم البعض، كما يوضح علاقة الدولة بالخارج، وهذا يعنى أن الرسول ﷺ أقام أول دولة على مقومات دستورية تتصل بالمواطنة ووحدة الدولة والعدالة والمساواة والعلاقات بين أبنائها، فالإسلام يؤكد على أهمية علاقة الإنسان بخالقه، كما يؤكد على أهمية تنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين كل أبناء المجتمع في كل المجالات.

وعظمة الوثيقة أنها جعلت يهود المدينة جزء من الأمة الإسلامية وقد وافقت معظم القبائل اليهودية على بنود الصحيفة، وخضعت للدستور أو للوثيقة بكل بنودها لكن بعض القبائل اليهودية خالفت الدستور ونقضت مواده وتأمرت مع الأعداء، أو اعتدوا على المسلمين. وهذا ما أدى برسول ﷺ إلى إجلائهم من المدينة فأخرجهم من المدينة لم يكن على الإطلاق بسبب ديانتهم اليهودية، لأن الكثير من اليهود الذين التزموا بقوا في المدينة، وقد جاء في الصحيفة ما نصه (وأنة من يتبعنا من يهود فإن له النصرة والأسوة غير مظلومين ولا مناصرين عليهم).

(١) راجع كمال الأدرع: القراءة الاستشراقية لصحيفة المدينة: دراسة لنماذج منها: أعمال ندوة صحيفة المدينة - جامعة الأمير عبد القادر ٢٠١٤م ص ٢٥-٣٠.

المواطنة وبناء الدولة المدنية الدستورية التعاقدية - صناعة إسلامية

بشكل عام فقد أراد رسول الله ﷺ أن يرتقي بالمجتمع المدني الجديد الذي أنشأه في المدينة وفي ظل الحكم الإسلامي، إلى مستوى راق يعلو فيها على الخصومات والصراعات الدينية، والعرقية، والعرفية، والتاريخية.؟ وهكذا إنشاء مجتمعا موحدًا تسوده الوحدة الوطنية والمواطنة وسيادة القانون وتكون مصلحة المجتمع هي العليا ^(١) هذا يتيح للجميع دون استثناء المشاركة في بناء وتقديم المجتمع؛ بل في اتخاذ القرارات العليا في الدولة، والمشاركة في الدفاع عنها، كل ذلك دون تخلي كل أهل دين أو قبيلة أو بطن عن خصوصياتهم فلم يأمر اليهود بالتخلي عن دينهم، ولا حتى المشركين. لكن المطلوب تركه والتخلص منه هو النعرات الأهلية والتفاخر بالأبناء، وشيوع العدوان بين القبائل والتمييز العنصري ... وأحل محلها قيم المواطنة والمآخاه وحقوق الإنسان والوحدة الوطنية والتحالف بين كل مكونات المجتمع، مسلمين - مهاجرين - أنصار - يهود - مشركين.. كذلك أقام المجتمع المدني الشوروي الجديد على العقيدة الإسلامية الوسطية الصحيحة والعبادة السلمية، وبناء العلاقات الاجتماعية المتكافئة على أساس المساواة والاحترام والحقوق للجميع، واهتم جدا ببناء أسرة متماسكة قوية.. هذه التغيرات الجوهرية أخرجت المجتمع من الجاهلية والظلم والاستبداد والاعتداء.. إلى مجتمع الأمن والعدل والإحسان والتكامل والتقدم... إلخ ^(٢).

(١) راجع كمال الأدرع: القراءة الاستشرافية لصحيفة المدينة - أعمال ندوة صحيفة

المدينة: الجزائر ٢٠١٤ م .

(٢) المصدر السابق ص ٤٤ .

قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۗ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ((النحل: ٩٠) .

وقد وافقت أغلب القبائل اليهودية على بنود الصحيفة، وخضعوا لما جاء بها لكن بعض القبائل انتهكت هذه البنود، فأجلاههم رسول الله ﷺ عن المدينة وإذا حاولنا التعرف على بعض الملامح الرئيسية في صحيفة المدينة فإننا يمكن إيجازها فيما يلي: (١)

أولاً: ذكر عناصر مجتمع المدينة بالنص. فقد ذكرت الصحيفة المسلمين من الأنصار والمهاجرين واليهود بقبايلها المختلفة، كلهم لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات وأكدت الصحيفة أن الوحدة الإسلامية أو الأمة الإسلامية لا تبغي إلغاء المخالفين في الدين.

ثانياً: تحقيق أعلى درجات التنمية السياسية بالارتفاع عن الروابط القبلية والعرقية إلى مستوى الدولة المدنية أو الأمة الموحدة.

ثالثاً: نظمت قضايا السلم والحرب والأمن والنظام، ومواجهة الخائنين.

رابعاً: تحقيق العدالة ورفع الظلم عن الجميع، والتعاون وتحقيق التكافل الاجتماعي في تحرير الأسرى والإقرار بالتعددية وحرية التدين.

خامساً: الحق في الحياة والوجود لكل أهل المدينة، والنص على وحدة المصير للجميع، ووحدة الهدف وإقرار التنوع لأنه سنة من سنن الله، وتعظيم القيم العليا ومكارم الأخلاق.

سادساً: الدولة مفتوحة أمام كل من يوافق على هذه الصحيفة وسيادة القانون.

(١) المصدر السابق ص ٥١.

سابعاً: فكرة الأغلبية والأقلية. لا يوجد في الإسلام دكتاتورية للأغلبية وقد كانت الأغلبية للمسلمين. فالجميع سواء أمام القانون والوثيقة وهم جميعاً مواطنون في الدولة الجديدة^(١).

نصوص وثيقة المدينة المنورة:

ويحسن أخيراً أن نورد نصوص صحيفة المدينة التي وردت في السيرة النبوية

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن اتبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

إنهم أمة واحدة من دون الناس.

المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو الحارس (من الخزرج) على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو سعادة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(١) عبد الناصر أبو البصل: الوحدة الإسلامية في المدينة: أعمال ندوة صحيفة المدينة الجزائر ٢٠١٤م - مصدر سابق ص ٥٧-٦٤.

وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبني الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل. وأن لا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

وأن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم، أو إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم.

ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن.

وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

وأنه من تبنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.

وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضهم بعضاً.

وأن المؤمنين يبئ بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

وأنه لا يجير مشرك مאלاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن.

وأنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول (بالعقل)، وأن المؤمنين عليه كافة لا يحل لهم إلا قيام عليه.

وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤويه، وأنه من نصره أو أراه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد.

* * *

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

وأن يهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

وأن يهود بن الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

وأن يهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.
وأن ليهود بني الأوس مثل ليهود بني عوف.
وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ
إلا نفسه وأهل بيته.
وأن جفته بطن من ثعلبة كأنفسهم.
وأن لبني الشطبية مثل ما ليهود بني عوف وأن البر دون الإثم.
وأن موالى ثعلبة كأنفسهم.
وأن بطانة يهود كأنفسهم.
وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد.
وأنه لا ينحجز على ثأر جرح، وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم
وأن الله على أبر هذا.
وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من
حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.
وأنه لا يأثم أمراء بحليفه وأن النصر للمظلوم.
وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.
وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.
وأن لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

وأن لا تجار قريش ولا من نصرها.

وأن بينهم النصر على من دهم يشرب.

وإذا دعوا إلى صلح يصلحونهم ويلبسونه فإنهم يصلحونهم ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين.

على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

وأن يهود الأوس مواليتهم وأنفسهم لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو آثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله.